

المخططات الأمريكية للهيمنة

على المنطقة العربية

أ.د. محمد إبراهيم منصور

دعنا نلقى جانباً الدوافع للحرب الأنجلوسكسونية على العراق دون غطاء من الشرعية الدولية ووسط رفض عالمي عارم غير مسبوق.

كانت دعاوى الإدارة الأمريكية التي اشتدت وراءها الحملة العسكرية واتخذتها ذرائع لتبرير غزوها هي أنها تخوض حرباً .

• مرة من أجل نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية : النووية والكيميائية والبيولوجية.

• ومرةً ضد نظام متهم بالتعاون مع شبكات الإرهاب الدولي وتنظيم القاعدة.

• ومرةً أخرى حرب تحرير للعراق من حكم ديكتاتوري وطاغية مستبد والتبشير بنشر الديمقراطية في ربوع العراق ولذلك صار اسمها الرمزي " حرية العراق " وهذه الحرية كما أسماها بوش هي "هدية الرب لشعب العراق" جاء بها جنوده الأمريكيون من أبناء النور ضد أبناء الظلام .

وكليها دوافع وراء سواتر تذكرنا بالشعارات التي كانت تستند وراءها الحروب الاستعمارية في القرن التاسع والعشرين من قبيل نشر رسالة الرجل الأبيض في تمدين الأمم الغارقة في بحار الظلمات ومنع الرق .. الخ

دعنا نترك سريعاً هذه الدوافع المعلنة وندخل مباشرة إلى الدوافع الحقيقية غير المعلنة للحرب على العراق، وهي في الواقع الدوافع التي غلبت خيار الحرب على كل خيار آخر.

١- القضاء على التهديد الاستراتيجي الذي يمثله العراق على إسرائيل.
٢- إن إحكام الهيمنة وضمان احتكار القرار الدولي والانفراد بالنفوذ الدولي لا يتحقق إلا بتقييد نمو القوى المنافسة الجديدة وكبح صعودها عن طريق الهيمنة والتحكم في أهم الموارد التي تقيد النمو الاقتصادي في أوروبا والصين واليابان، وبسط الهيمنة على النفط العراقي بكنوزه المغرية ليس فقط لضروريات الحاجة الملحة للاقتصاد الأمريكي الذي دخل مرحلة العطش إلى الطاقة الرخيصة. وإنما لرغبة الولايات المتحدة في استخدام نفط العراق للتحكم في منافسيها المحتملين وربط وصولهم إلى منابعه في الشرق الأوسط برضاء الشريك الأمريكي وشروطه وبذلك تقيد صعودهم السريع نحو قمة النظام الدولي وتؤجل إلى أطول مدى ممكن نحو انتقال النظام الدولي إلى نظام متعدد الأقطاب ينهي استبداد القطب الأمريكي.

٣- إن الولايات المتحدة جاءت إلى العراق مثلما جاءت من قبل في أفغانستان مدفوعة بهوس الرغبة في استرداد هبة مفقودة بعد ضربة موجعة في الحادي عشر من سبتمبر. كانت بحاجة - حتى قبل أن تتجمع لديها أدلة اتيام دامغة - إلى عدو هزيل مضمون هزيمته، تضمن في حربيها معه نصراً سريعاً يعيد إليها ثقة غائبة بالنفس، ويسترد لها هبة ديست ودفنت تحت أنقاض برججي مبني التجارة العالمي في نيويورك، ووزارة الدفاع في واشنطن.

كان عدوها الأول في أفغانستان نظام طالبان الذي هبط على أفغانستان بمظلة أمريكية لكنه كان يعيش خارج التاريخ وفي كهوفه، وعندما أرادت

الإدارة الأمريكية رأسه فداء لضحاياها في ١١ سبتمبر قطعتها دون أدنى عناء وبدون أن يذرف عليه أحد الدموع في داخل أفغانستان أو خارجها وعدوها الثاني هو النظام العراقي الذي نجح في بناء قوة إقليمية لا يستهان بها بدها في حربين إقليميتين ضد جيرانه في إيران والكويت، ولكنه هو الآخر صار نظاماً آيلاً للسقوط بعد أن استنزفه واستنزف العراق معه حصار دام ثلاثة عشر عاماً، وهو نظام معزول إقليمياً وعالمياً محاطاً بجيران لا يأمنون شره، وكانت الحرب الأمريكية ضده - كما يتوقع - مضمونة نتائجها ولم تكن مغامرة غير محسوبة.

٤- الشروع في إعادة تغيير النظام الإقليمي القديم والنظام العالمي القديم وهما نظامان من مخلفات الحرب العالمية الثانية، ولا يعكسان الحقائق الجديدة على الأرض التي أفرزتها الحرب الباردة بعد سقوط حائط برلين وبعد النصر الأمريكي في حرب الخليج الثانية التي يبدو أن الولايات المتحدة لم تقطف ثمارها التي تجعلها قوة وحيدة بغير منازع.

إن كولين باول لم يتردد قبل أسابيع من الحرب في الإفصاح عن نية الإدارة الأمريكية التي تتحكم فيها " المحافظون الجدد " في رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط بعد دحر نظام صدام حسين في العراق.

كما أن إصرار الولايات المتحدة على دخول الحرب بعيداً عن غطاء الشرعية الدولية وفي تحد سافر للمجتمع الدولي والرأي العام العالمي إنما يعكس أن الإدارة الأمريكية ماضية في طريقها لا يثنئها أحد إلى عالم ما بعد الأمم المتحدة. ثم إن استبعادها على لسان باول وغيره من المسؤولين الأمريكيين - لأى دور للمنظمة الدولية في عراق ما بعد الحرب دليل جديد على تبرمها من الأمم المتحدة وضيقها بالقيود التي تقيد احتكارها بسلطة القرار الدولي.

إن نظاماً عالمياً لا يطلق للولايات المتحدة يدها في الشأن الدولي لابد أن يتغير. فالأمم المتحدة كتنظيم دولي كانت تعاكس إرادة المنتصرين في الحرب الكونية الثانية، ولكن في الحرب الباردة كان هناك منتصر واحد ليس بحاجة إلى منافسين يزامونه قيادة النظام الدولي الجديد ناهيك عن استخدامهم حق النقض ضد اندفاعه واستخدامه غير المبرر وغير المنطقي للقوة.

وبالقياص نفسه كانت معارضة الولايات المتحدة للمحكمة الجنائية الدولية ورفض التصديق على اتفاقية كيوتو وغيرها من تنظيمات ترى فيها قيوداً على حقها في الهيمنة.

كما أن نظاماً إقليمياً في الشرق الأوسط موروث هو الآخر من الحرب العالمية الثانية لا يضمن مصالح الولايات المتحدة وهيمنتها نظام ينبغي إزاحته أو على الأقل إعادة تشكيله.

وفي ظني أن احتلال العراق قد فتح الباب أمام إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يعزز المصالح الأمريكية ويضمن وجوداً أمريكياً دائماً في منطقة ظلت محوراً مهماً من محاور السياسة الخارجية الأمريكية لأكثر من قرن من الزمان.

وهكذا فإن الإطاحة بنظام صدام حسين في بغداد هي مفتاح من السيناريوهات الأمريكية لمنطقة بالغة التعقيد هي منطقة الشرق الأوسط. وهذه السيناريوهات تصب جميعها لصالح هيمنة الولايات الأمريكية وإسرائيل في آن واحد.

*** ولنلق نظرة سريعة على بعض هذه السيناريوهات الأرجح احتمالاً :**

(١) الإتيان بحكومة عراقية تحت حراب الاحتلال الأمريكي. عن طريقها سوف يتحول العراق من حالة المجابية مع الولايات المتحدة إلى حالة الولاء لها. وسوف يسبق ذلك حكومة انتقالية عسكرية بقيادة الجنرال جاي جارنر

وهو تاجر سلاح قامت شركته بتزويد الجيش الأمريكي بالمبيدات العسكرية التي يتم استخدامها ضد العراق وهو من أصدقاء مجموعة الصقور التي يقودها تشيني ورامسفيلد، وهو - وذلك هو الأهم - صديق حميم لإسرائيل ولذلك فإنه سيكون صاحب موقف مهم بمجرد أن يتولى منصبه الجديد حيث سيكون أول حاكم للعراق يعترف بدولة إسرائيل (الإنديبننت).

وتفكر الإدارة الأمريكية منذ زمن في السيناريو الذي سينفذه جارنر في العراق وربما كان نفسه السيناريو الذي نفذه سلفه الجنرال ماك آرثر في اليابان عشية هزيمتها في الحرب العالمية الثانية: تقييد نمو العسكرية العراقية وجعل العراق نموذجاً يحتذى به جيرانه العرب.

وتضم حكومة جارنر العسكرية المؤقتة ٢٣ شخصية معروفة سواء من رجال المخابرات الأمريكية السابقين مثل ولسي، أو السفراء مثل باربارا بودين سفيراً أمريكياً السابقة في اليمن، وكارنتي الذي خدم في السودان. وستشهد هذه الحكومة المؤقتة الطريق لحكومة عراقية معظمها من المقربين من الإدارة الأمريكية وعلى رأسهم تلك الشخصيات المثيرة للجدل والمعروفة بعلاقتها بالأيبياك وإسرائيل والمحافظين الجدد وهو أحمد الجلبي رئيس ما يسمى بالمؤتمر الوطني العراقي المعارض.

إن سيناريو (عراق ما بعد صدام) لا يخلو من صراع أو حروب أهلية وعدم استقرار.

والإدارة الأمريكية تنوى بكل وضوح أن تجعل العراق مستعمرة حتى لو تشكلت فيه حكومة عراقية، كما أن الوجود العسكري الأمريكي المكثف سيبقى لعشرة أعوام أو يزيد وهذا هو السبب الحقيقي لرفض أمريكا تولى الأمم المتحدة مسؤولية الإدارة الانتقالية بعد الحرب.

(٢) إن هذا السيناريو العراقي إذا ما تحتم قد يؤدي إلى قيام نظام إقليمي فرعي جديد في المنطقة يضم تركيا وإسرائيل وعراق ما بعد صدام، وفي ظل هذا النظام الإقليمي الفرعي سوف تكون لإسرائيل اليد العليا في تقدير الترتيبات الجديدة للشرق الأوسط.

وقد تجد الولايات المتحدة في (عراق ما بعد صدام) حلاً مقبولاً لمعضلات الصراع العربي الإسرائيلي فحق عودة اللاجئين يعالج بهجرة فلسطينية كثيفة إلى العراق وتحقيق طموحات شارون واليمين الإسرائيلي في مزيد من التوسع يعالج هو الآخر بهجرة كثيفة إلى العراق. ثم لا يستبعد العودة إلى النظام الملكي الهاشمي إلى العراق بما يوسع دائرة المحور العراقي الأمريكي الإسرائيلي ويمهد لخريطة جديدة للشرق الأوسط يكون مبررها - طبقاً لزعيم بوش - ملاحقة الإرهاب.

(٣) وعلى مرمى البصر تبدو منطقة الخليج والجزيرة العربية على موعد مع سيناريو جديد فالمنطقة ستكون ما بعد الحرب على العراق ساحة لتغيرات راديكالية أكثر عمقاً. سنتال هذه التغيرات الواقعين السياسي والثقافي تحت ستار الديمقراطية وحقوق الإنسان. كما سيضم التغيير إعادة تشكيل البنية الأساسية للتنظيمات الدينية ومناهج التعليم وأجهزة الإعلام، ويمكننا القول بأن ضرورات هذا التغيير تنبع من قناعتين أمريكيتين :

الأولى : قناعة لدى الخبراء الأمريكيين بأن بلادهم قادرة على أن تفعل ما تشاء في منطقة الخليج في ظل غياب كامل لأي قيد دولي أو إقليمي يمكن أن يقيد حركاتها.

والثانية : أن هذه التغييرات باتت بعد أحداث ١١ سبتمبر تفرضها متطلبات الأمن الداخلي الأمريكي والهيمنة الخارجية للإمبراطورية الأمريكية.

(٤) وأخيراً فإن المنطقة بعد الحرب العراقية وسقوط نظام صدام حسين ستكون مفتوحة لأسوأ من ذلك من احتمالات وأكثر هذه الاحتمالات هو العبث بجغرافيتها السياسية وتبنى المشروع الصهيوني الخطير القائم على تفتيت المنطقة وإعادة تركيبها على أسس قبلية وإثنية وعشائرية، على حساب الرابطة الوطنية بحيث تتبوأ إسرائيل مركز الزعامة بين الأقليات التي ستتشر في المنطقة.

إن مشاهد التحالف والتسيق بين قوات البشمركة الكردية والقوات الأمريكية في شمال العراق هي رسالة من طرف خفي لكل الأقليات على امتداد الوطن العربي أن بإمكانهم أن يجدوا في الولايات المتحدة حليفاً يتكأون عليه لتحرير مطالبهم القوية والثانية.

هذه هي السيناريوهات التي صارت قريبة من مرمى البصر وهذا بعض ما يكاد لنا..

" اللهم قد بلغت .. اللهم فاشهد "